

المحور الثالث

النظرية الأدبية الحديثة

(النظريات الجمالية)

يتضمن ملخصا لمحاضرتين:

نظرية التعبير

نظرية الخلق

دروس بيداغوجية

موجهة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس (ل م د)

دراسات نقدية

إعداد:

الدكتورة أسماء حديد

2025-2026م

المحاضرة السادسة

نظرية التعبير

أولا- السياق التاريخي:

ظهرت النظريات الجمالية بوصفها ردّ فعل على النظريات الكلاسيكية التي هيمنت على الساحة الأدبية والنقدية في العصور الوسطى (الكلاسيكية) لتبدأ بالتراجع مع فجر النهضة الحديثة...

فقد تحول فن الشعر الأرسطي في العصر الوسيط (بعد عصور اليونان) إلى قواعد ومعايير مطلقة وثابتة وهو ما سمي بالبلاغة التعليمية، ودخل النقد والفن عصور التقليد والاتّباع والجمود حيث تحولت وظيفة المبدع والفنان الأديب والناقد؛ فالناقد وظيفته شرح وتلخيص قواعد الفن التي وضعها أرسطو طاليس والتي باتت معيارا فنيا يجب على الشعراء والأدباء التقيد بها حرفيا اقتداء برموز الفن الإغريقي اليوناني القديم والشاعر وظيفته تعلم هذه القواعد واتّباعها في كتابة الشعر والنثر.

وبهذا "ظلت نظرية المحاكاة مسيطرة على الحركة الأدبية والنقدية الأوروبية حتى أواسط القرن الثامن عشر" (شكري عزيز الماضي 37) وهي بداية التحول التاريخي للمجتمع الأوروبي من نظام الإقطاعية (اقتصاد ريفي) الذي ساد العصور الوسطى، إلى نظام البرجوازية (اقتصاد المدينة) الذي رافق الثورة الصناعية التجارية.¹

¹- البرجوازية (Bourgeoisie) كلمة فرنسية مشتقة من (Bourg) المدينة. وتعني طبقة اجتماعية اقتصادية تطورت من سكان المدن في أوروبا (التجار وأصحاب الحرف) إلى طبقة تملك رأس المال ووسائل الانتاج المصانع والأراضي والشركات الاقتصادية. وتقابل البروليتاريا (Proletariat): كلمة مشتقة من اللغة اللاتينية (Proletarius) وتعني في الرومانية القديمة: المواطن الفقير الذي لا يملك ثروة سوى الأبناء (Proles) الذين يقدمهم لدولته.

وهو ما أحدث تحولا ثقافيا في المجتمع على الصعيد العلمي والفلسفي والفني، وكذا على صعيد الأدب والنقد، حيث ثار الشعراء والأدباء على نظرية البلاغة الكلاسيكية والتي تحولت إلى محض زخارف لفظية.

وظهرت آراء ومواقف ومفاهيم أدبية جديدة أسهمت في بلورة نظرية جديدة في الأدب مع أواخر القرن الثامن عشر للميلاد، وهي (نظرية التعبير):

- (Théorie de l'expression): في الاصطلاح الفرنسي

- (Expression Theory): في الاصطلاح الإنجليزي

- من الأصل اللاتيني (Expressio) ومعناه: الإفصاح وإخراج الشعور الداخلي.

وبانتقالها إلى حقل إبداع الأدب صارت تعني أنّ الأدب تعبير عن الشعور والاحساس والعواطف والانطباع الذاتي.

وقد تعددت ترجماتها في اللغة العربية فترجمت إلى: الانطباعية، التأثيرية، التأثيرية... لكن الاصح هو (التعبير) لأنه الأقرب إلى دلالة الأصل الأجنبي. (فضلا عن وجود فروق مفهومية دقيقة بين التعبيرية والانطباعية ...)

- خلاصة القول نشأت نظرية التعبير وتطوّرت أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر للميلاد في سياق الاتجاهات الجمالية الرومانسية المثالية التجديدية بوصفها رد فعل على النظرية الكلاسيكية من جهة وعلى اتجاهات الواقعية من جهة أخرى، حاملة دعوة إلى تجديد الفكر الأدبي والنقدي. وكانت تعبيرا عن قيم البرجوازية في زمن صعودها الاجتماعي. ومن أبرز رموز نظرية التعبير: وليم وورد زورث، صموئيل تيلور كوليردج.

ثانيا- نظرية التعبير عند وليم وورد زورث (1770م-1850م):

- هو شاعر (سمي بشاعر الطبيعة) وناقد كتب ديوان (غنائيات) الصادر عام 1798م بالاشتراك مع صديقه كوليردج، وقد ظهرت الطبعة الثانية عام 1800م

تطورت دلالة الكلمة حديثا في سياق الماركسية لتعني الطبقة العاملة التي لا تملك ثروة سوى قوتها وقدرتها على بذل الجهد والوقت والتي تقوم الطبقة البرجوازية بتشغيلها مقابل أجر مادي زهيد ولذلك وصفت بالكادحة.

باسم (وورد زورث) مع مقدّمة بقلمه تبين أسس موقفه الأدبي والنّقي الذي كتبت القصائد بناء عليه (ينظر شكري عزيز الماضي بتصرّف، ص 41)

- كانت هذه المقدمة النقدية مصدر إلهام لصديقه كوليردج (سيرة أدبيّة) وهذا الكتاب يُعدّ "من أهمّ النّصوص النّقدية في التّراث العالمي" (ينظر المرجع نفسه) يقول وورد زورث في مقدّمة كتابه (غنائيات):

" إنّ كلّ شعر جيّد هو فيض تلقائيّ لمشاعر قويّة"

يشير بهذا القول إلى دور الانفعالات العاطفية في إبداع الشعر، وهو الأهم من منظوره.

- وننبه أن مفهوم (التعبير) عند وورد زورث يختلف عن مفهوم التعبير عند كوليردج، حيث تطور مفهوم التعبير عند هذا الأخير إلى تعبير خلاق، وصار أقرب إلى مفهوم (الخلق) منه إلى مفهوم (التّعبير).

وعلى أهمية المقدمة والديوان، إلا أن الدارسين يؤكدون وجود فارق جوهري بين الناقلين؛ فقد تم تصنيف وورد زورث بوصفه مثقفاً؛ "شاعراً ناقداً ملماً بشيء من موضوعات التفكير في عصره" (نفسه، ص 43). أما كوليردج فهو فيلسوف قبل كونه ناقداً، وقد وضع نظرية أدبية قائمة الكيان، كما سنبين فيما يأتي.

- ما هو أصل الشعر؟ وطبيعته؟ ووظيفته؟ من منظور وورد زورث؟

- الأصل: الذات الشعور

- الطبيعة: تجربة ذاتية

- الوظيفة: التعبير عن الذات

ثالثاً- نظرية التعبير/الخلق/الخيال عند صموئيل تيلور كوليردج (1772م-1834م):

هو شاعر وناقد وفيلسوف، صاحب كتاب (سيرة أدبيّة)، وواضع نظرية الخيال، والتي ناقش من خلالها الوظيفة الأساسية للشعر والفنّ، وكذا مصدره وطبيعته.

يرى أن الخيال قوة خالقة خلق جديد للموضوعات والواقع. وفي هذا السياق يظهر التعارض بين فلسفته والفلسفة الكانطية.

"إنه خلق صورة لم توجد وما كان لها أن توجد بفضل الحواسّ وحدها أو العقل وحده، وأنما هو صورة تأتي ساعة تستحيل الحواسّ والوجدان والعقل كلا واحدا في الفنّان. بل كلا واحدا في الطّبيعة. هذا الخيال وحده هو الذي يميّز بين الشعراء والعباقرة والشعراء المتشاعرين" (ينظر فن الأدب، المحاكاة: ص126).

رابعا - مبادئ نظرية الخيال:

تقوم نظرية الخيال على المبادئ التالية:

- التمييز بين الخيال والوهم

- الخيال الشعري أعظم الملكات وذروة النشاط الإنساني

- ينقسم الخيال إلى نوعين:

الخيال الأولي: فطري ومشترك بين جميع الناس

الخيال الثانوي: يختص به الشعراء ويتميز به الفنان عن البشر العادي وهو ما يسمى (الخيال الشعريّ).

- تكمن وظيفة الخيال في توحيد الموضوعات الجزئية في صورة كلية موحدة، ولا يختلف الخيال الأولي عن الخيال الثانوي في نوع الوظيفة بل في درجتها أو الكيفية... "الخيال يذيب يسهب، يشتت، يوحد، يجدّد من أجل إعادة الخلق للوصول إلى الوحدة والمثل"

- الشعر هو النشاط العام للخيال

- الخيال يبني موضوعه من مادة واقعية وفق تنظيم جديد يلغي وجودها المسبق

- تحويل المألوف الاعتيادي إلى مدهش غريب

- الخلق في صور شعرية فالشعر في جوهره قدرة على التصوير الخلاق

- الخيال وظيفته التوحيد بين الجزئيات والمتناقضات في الواقع الخارجي فتتماهى

- الخلق هو إضفاء العالم الشعوري الذاتي على حقائق العالم الموضوعي

- الخلق هو التحام بين الذات والموضوع

- ظهور مفاهيم جديدة (الكائن العضوي الحي ويعني به النص والوحدة والكلية/ والروح الدينامية وهي القدرة على الخيال والخلق...)

- خلاصة:

نستنتج أن كوليردج يعرف الشعر في علاقته بالذات الخالقة (الخيال) فهو يتجاوز البحث في وظيفة التعبير إلى البحث في كيفية التعبير وهي الخلق الفني.

- مع (كوليردج) لم يعد السؤال لماذا نكتب الشعر؟ بل كيف نكتبه؟ وبهذا أصبح الشعر خلقا مصدره الخيال الشعري ووظيفته التعبير والإدهاش

- إذن التعبير هو خلق وأداته هي الخيال فالخيال هو مصدر وأصل الشعر أو الإبداع الشعري وأصل الخلق وهو تعبير خلاق يعيد خلق الموضوع والواقع عن بواسطة الخيال.

- ما هو أصل الشعر؟ وطبيعته؟ ووظيفته؟ من منظور (كوليردج)؟

- الأصل: هو الخيال الشعري

- الطبيعة: خلق

- الوظيفة: تعبير

خامسا - المرجعية الفلسفية (الأساس الفلسفي لنظرية التعبير):

- كل ما سبق شرحه من عوامل تاريخية أسهم في ظهور وتبلور الفلسفة (المثالية الذاتية) والفكر المثالي الذاتي في الفن اتجاه هو فكر فلسفي جمالي معارض للكلاسيكية والواقعية والوضعية

- المعرفة وجدانية ودور العقل جزئي

- الخاصية الجوهرية للطبيعة الإنسانية هي (الوجدان)؛ يتمثل الوجدان في الشعور والعواطف، وهو ما يمثل مفهوم الذات والوعي الذاتي والذي يقوم على التجربة الشعورية (كانط) والخبرة الذاتية بالحياة (هيجل)

- وجود الذات (الوعي) أسبق من وجود العالم الموضوعي؛ فالذات هي أصل ومصدر إدراك المعنى، وبما أن الذوات متغيرة، فإن كلا منها يخلق عالماً على صورة مفارقة لغيرها

- الموضوع أو العالم الموضوعي أو الخارج لا أهمية له ولا وجود له في ذاته لأنه يستمد قيمته ومعناه من الذات (الوعي)، كما إن جزئيات الموضوع المدرك لا أهمية لها إلا في علاقتها بالذات المدركة التي توحيها لتمنحها معنى جديد

- أولية الوجدان على العقل والخبرة التجريبية

- ويمثل هذه المرجعية مصدران هما:

1 إ. كانط (1724م-1800م) يرى أن الشعور هو مصدر المعرفة بالحقيقة والفن

2 ج. ف. هيغل (1770م-1831م) الخبرة هي مصدر الفن والخيال أداة الإدراك الفني الحسي في صور (تصوير)

إيمانويل كانط

سادساً- المبادئ العامة لنظرية التعبير:

- الفرد والنزعة الفردية: تحرير الفرد والإعلاء من قيمة الفردية

- الذات والذاتية

- الذات مفهوم مثالي يشير إلى الوجدان (الشعور والعواطف)

- وعليه رفعت البرجوازية شعارها الاقتصادي (دعه يفعل دعه يمر) وشعارها الفني (دعه يُعبّر عن ذاته)

- نستنتج أصل وطبيعة ووظيفة الشعر والأدب عموماً من منظور التعبيرية من خلال هذا التعريف الشامل:

"الفن تعبير عن العالم في صورة خاصة من خلق الذات ومصدرها هو الوعي الشعوري، وقيمة التعبير تكمن في القدرة على تصوير العالم الخاص وإيصاله أو خلق عالم مدهش مفارق للواقع يدهش المتلقي"

- مراجعة نقدية:

صحيح أنها أسهمت في توضيح وشرح ماهية الفن وعملية الإبداع الشعري، إلا أنها بالغت في منح الأهمية للذات والوعي الذاتي، والافراط في النزعة الذاتية والفردية، والعاطفة، والوظيفة الشعورية والعاطفية والاحساس والوجدان، وهو ما جاء في سياق العداء ضد التوجهات العلمية الواقعية، كالنظرية التاريخية عند (هيبوليت تين)، حيث عارضت بشدة أهمية ودور العوامل الخارجية (التاريخية والاجتماعية والنفسية والفكرية الخ

من جهة أخرى يرى كثير من النقاد والمؤرخين أنّ نظرية الخيال تمهيد للفرويدية والوجودية ونظريات الاستقبال وجماليات التلقي.

المحاضرة السابعة

نظرية الخلق

أولا- السياق التاريخي:

إذا كانت نظرية التعبير نتاجا لصعود البرجوازية وتقدمها فإنّ نظرية الخلق كانت نتاجا لفكر الطبقة نفسها في زمن أفولها وإبان أزمتها الفكرية والروحية.

ظهرت أوائل القرن التاسع عشر (حيث يرى المؤرخون أن بداياتها ترجع إلى نظرية الخيال عند كوليردج) وبلغت ذروتها أواخر القرن التاسع عشر للميلاد في فترة انحطاط

ثانيا- مرجعيتها الفلسفية:

تستند إلى الفلسفة المثالية المتطرفة في الذاتية وتحديدًا مع الفيلسوف كانط الذي تحوّل في مرحلة متأخرة إلى مثالي ذاتي متطرف. الفلسفة المغرقة في الذاتية ترفض المنفعة في الفن وتدعو إلى الفن الخالص (الجمال خالص لذاته لأن المتعة الجمالية مقصودة لذاتها وليس للانتفاع بها)

- التركيز على بنية العمل الفني

- استقلال الجمال عن الأهداف الاجتماعية والثقافية والأخلاقية الخ
ومن رموز هذا المذهب:

إليوت، كروتشه، برادلي، كرورانسوم، ريتشاردز

ثالثا- مفهوم العمل الأدبيّ عند إليوت (المعادل الموضوعي):

- العمل الأدبي ينتمي إلى عالم خاص وهو عالم الفن،
- عالم الفن يختلف جوهريا عن العالم الداخلي (الذات) وعن العالم الخارجي (الواقع)
- حظيت مقولة المعادل الموضوعي باهتمام بالغ وهو مفهوم مستلهم من حقل الرياضيات

رابعا- ملاحظات نقدية:

كان هذا المذهب الجمالي في النظرية الأدبية الحديثة عرضة للنقد بسبب:

- عزل الفن عن الفنّان وعن روابطه الخارجية وسياقاته
- فكرة المعادل الموضوعي تنطوي على تناقضات
- على الرغم من الإقبال الشديد للنقاد والشّعراء والافتتان بمقولاته إلا أن كثيرا من هؤلاء تراجع عن هذا المذهب وتخلّى عن مبادئه، واتجه إلى ربط الأدب بسياقاته وعوامله الخارجية الموضوعية: الأخلاق والاجتماع والنفس والدين والعلم والفلسفة...

وهو ما سيتجسد مع النظريات الأدبية السياقية أو الخارجية (التاريخية والاجتماعية/الماركسية والنفسية...) والتي سترفع راية المنفعة في الأدب وتسترجع روابطه بسياقات النشوء والتشكّل والتكوّن.